البعدان الإنساني والفكاهي في أدب الرحلة عند العجيلي

الباحثة : د. هدى الحافي: دكتوراه باللغة العربية، اختصاص: نثر حديث، كلية الآداب، جامعة اللاذقية

ملخص :

يعالج بحث البعد الإنساني والفكاهي في أدب الرحلة عند العجيلي ، موضوعاً من الموضوعات التي حظيت باهتمام الباحثين والنّقاد على مرّ العصور، والبحث بذلك هو امتداد لسريات الرّحلة التي عرفها الأدب العربيّ منذ القديم، لقد أظهر القاصّ في رحلاته البعد الانسانيّ والفكاهيّ، وعرض لمواقف إنسانيّة مؤثرة، وحطّم من خلال ذلك الحواجز، التي تفصل بين الإنسان وأخيه الإنسان وأظهر انحيازه الكامل لصالح الإنسان، ومشاكله المختلفة، وهنا تكمن أهمية البحث.

أمّا هدف البحث فكان تسليط الضّوء على هذا الفنّ الحكائي العريق، وكيف استطاع العجيلي بأسلوبه الفكاهي اللطيف أن يشدّ انتباه القارئ، ويثير دهشته.

أمّا منهج البحث فكان المنهج النفسيّ، وقد استعان في بعض الأحيان بالمنهج الوصفي. و خلص البحث إلى جملة من النتائج، لعلّ أبرزها: إنّ البعد الإنسانيّ في رحلات عبد السلام العجيلي، تنفذ الى الجوهر الإنساني متجاوزة المظاهر الخارجيّة، والاختلافات الثّقافيّة.

كلمات مفتاحيّة:

أدب الرحلة، الإنسانية، الفكاهة، عبد السّلام العجيلي.

The Human and Humorous DimensionS in Travel Literature by Al-Ajili

Huda Alhafi

PhD . in Arabic langage. Specializing in modern prose

Abstract

This study addresses the human and humorous dimension in the travel literature of Al-Ajili, a topic that has attracted the attention of researchers and critics throughout the ages. In this sense, the research represents an extension of the travel narratives that Arabic literature has known since ancient times. Through his journeys, the storyteller reveals both human and humorous dimensions, presenting touching human situations. In doing so, he breaks down the barriers that separate one human being from another and demonstrates his complete bias in favor of humanity and its various problems. Herein lies the significance of the research. The aim of the study is to shed light on this ancient narrative genre and to show how Al-Ajili, through his gentle humorous style, succeeds in capturing the reader's attention and arousing their sense of wonder. As for the methodology, the research adopts the psychological approach, occasionally drawing on the descriptive method. The study concludes with a number of findings, the most prominent of which is that the human dimension in Abdul Salam Al-Ajili's travel writings penetrates the very essence of humanity, transcending outward appearances and cultural differences.

Keywords :

Travel Literature, Humanism, Humor, Abdul Salam Al-Ajili

مقدمة:

يظهر البعد الإنسانيّ في أدب الرّحلات عموماً وعند العجيلي خصوصاً، من خلال تقديمه للوحات إنسانيّة مفعمة بالأسى والألم، فالجوع والفقر والمرض كانت، وما زالت من أقسى الظّروف ، التي تواجه الإنسان ، وتضعه وجهاً لوجه أمام ضعفه، وانعدام حيلته، وتذكّره بأنّ الإنسان –على اختلاف انتماءاته العرقية أو الدينيّة أو الجغرافية– واحد أمام المعاناة.

ولعلّ أدب الرّحلات إنّما يسعى إلى تقديم هذه المشاهد الإنسانية، بطريقه مجردة عن كلّ ما يمكنه أن يبعد الإنسان عن أخيه الإنسان.

أمّا البعد الفكاهي، فيبرز بوصفه سمة أسلوبيّة يتبعها القاصّ ليحقق هدفين مزدوجين، فمن جهة يتمكن القاصّ من الوصول إلى القارئ، وولفت انتباهه، وإثارة مشاعره، ومن جهة أخرى فالسّخرية اللطيفة أو المفارقة ، التي يعرض لها أدب الرّحلات من شأنها أن تحقّق تفاعلاً حضاريّاً ينحاز لكلّ ما هو إيجابيّ ، ويعبّر عنه، وينتقد كلّ ما هو سلبيّ. ولا يخفى ما يحققه هذا الأسلوب أيضاً من المتعة والترفيه المميّز لأدب الرّحلة.

مشكلة البحث وأهميته:

يعالج البحث البعدين الإنسانيّ والفكاهيّ في أدب الرّحلة عند العجيلي، ويولي اهتمامه بالدّور الذي يقوم به تفاعل هذين البعدين في تشكيل رؤية العجيلي للعالم(إنسانيّاً– حضاريّاً– ثقافيّاً)، ممّا يشارك في فهم الآخر والتّعلّم منه وتعليمه في الوقت ذاته.

تكمن أهميّة البحث في أنّه يسعى إلى إبراز الجوهر الإنسانيّ، الذي لا يتغيّر بتغيّر الأزمنة أو الأمكنة.

يبرز هذا الجوهر في أدب الرّحلات من خلال إلغاء ثنائيّة الأنا والغريب، وتحوّلها إلى ثنائيّة الأنا والإنسان، وإنّ تناول البحث لأسلوب الدّعابة، بالدّراسة والتّحليل كان له أهميّة في إبراز المفارقة والتّناقض، والكشف من خلالها عن الغنى الثّقافي، والحضاري، الذي يحمله أدب الرّحلات.

أمّا الجديد في البحث فكان في إظهار كيفية امتزاج الحسّ الإنسانيّ في أدب العجيلي، بطريقة تجاوز فيها التّسجيل الوصفي الجامد، إلى رؤيته إنسانيّة تعكس الثّقافة الشّرقيّة.

أمّا الطّرافة والفكاهة، فالجديد الذي جاءت به، أنّها أشارت إلى انّ استخدام هذا الأسلوب لم يكن لإثارة ضحك مجاني، وإنّما لإظهار الاختلاف بين الشّعوب وطريقة حياتها، بأسلوب يجعل المتلقي ينحاز لما هو إيجابي ويتبناه.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى إبراز كيف تتحول الرّحلة إلى وسيلة لعرض قضايا إنسانيّة والتّعبير عنها، من خلال فهم العلاقة المتبادلة بين المسافر وغيره من الأشخاص الذين يصادفهم، كما يهدف إلى إعادة قراءة نصوص الرّحلة، ولا سيّما عند العجيلي، من منظور يربط بين التجربة الفردية للكاتب، وكيفيّة تفاعلها مع المتلقي، وإبراز دور الأسلوب الذي يتراوح بين الواقعي، والواقعي السّاخر في تحقيق هذا التّفاعل.

فرضيات البحث وحدوده:

الفرضية الأولى: يظهر البعد الإنساني في أدب الرّحلات عند (العجيلي) من خلال إظهار التعاطف مع الإنسان، وما يعانيه من مشكلات مختلفة.

الفرضية الثانية : إنّ الفكاهة تستخدم في أدب الرّحلات عند (العجيلي) للترويح عن النّفس والتّسلية، وفي الوقت ذاته تستخدم بوصفها أداة للنقد الاجتماعي، وإظهار المفارقة في المواقف والأساليب الاجتماعية المتبعة في الدّول التي سافر إليها القاصّ.

أمّا حدود البحث فتقتصر على نصوص الرّحلات عند العجيلي، من جانبها الإنساني ، ذلك أنّ أدب الرحلات عند العجيلي تمتع بالثراء الإنساني، الذي عكس قضايا اجتماعية غنية ومتنوعة، أما الجانب الفكاهي فقد أورده القاصّ ليس بهدف الإضحاك، وإنّما النقد والإصلاح. وقد تناول البحث هذين الجانبين في أربع مجموعات قصصية، وهي:(حكايات من الرّحلات)، و(دعوة إلى السّفر) (محطات في الحياة) ، و(ادفع بالتي هي أحسن) من دون دراسة أعماله الأخرى ، أو أعمال غيره من الكتاب في هذا المجال، لأنه وجد في المجموعات السّابقة نماذج لإظهار الجانبين الإنساني والفكاهي في أدب الرّحلات، نظراً لما تمتلكه بعض قصص هذه المجموعات من بعد إنساني، إضافة إلى أن تلك القصص لا تخلو من حسّ الفكاهة والظرافة والامتاع والسخرية.

مصطلحات البحث وتعريفاته الإجرائيّة:

الرّحلة في التّعريف اللغوي:

"رَحَل الرّجل، إذا سار ورَحُل رَحُول، وقوم رحّل، أي يرتحلون كثيراً، ورَجل رحّال: عالم بذلك ومجيد له، والتّرحل والارتحال: الانتقال".[1]

فمعاجم اللغة بأجمعها تجمع على أنّ الرّحلة هي انتقال من مكان إلى آخر.

التعريف الاصطلاحي:

يعرّف أدب الرحلة بأنّه " مجموعة من الآثار، التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته الى بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، ولتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية، التي شاهدها، أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة ، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد".[2]

أمّا الفكاهة لغة: الفاء والكاف والهاء، أصل صحيح يدلّ على طيب واستطابة، من ذلك الرّجل الفَكِه: الطيب النّفس.[3].

والفكه الذي يتناول أعراض النّاس، وفكّههم بملح الكلام، أي أطرفهم، ...والفَكِه الذي يحدّث أصحابه ويضحكهم، تركت القوم يتفكهون بفلان: أي يغتابونه،...، وتفاكه القوم: تمازحوا، وفاكهه: مازحه، والأفكوهة: الأعجوبة.[4]

أما المعنى الاصطلاحي للفكاهة: هي: " تلك الصّفة في العمل أو في الكلام أو في الموقف أو في الكتابة، التي تثير الضّحك لدى النّظارة أو القرّاء"[5].

---

[1] ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: نخبة من الأساتذة، دار المعارف، ج٣، مادة رحل، د.ط، القاهرة، ص١٦٠٨

[2] وهبة، مجدي، وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربيّة في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٧٤، ص١٢

[3] ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، ج٤، مادة فكه

[4] يُنظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة فكه.

[5] المهندس ، كامل، وهبة، مجدي معجم المصطلحات العربيّة في اللغة والأدب، ص٢٦٧.

وعرّفه شاكر عبد الحميد بأنّها "نوع من التّأليف أو الخطاب الثقافي، الذي يقوم على أساس الانتقاد للرذائل والحماقات، والنّقائص الإنسانيّة الفردية منها والجمعيّة، كما لو كانت عملية الرّصد، أو المراقبة لها تجري هنا من خلال وسائل وأساليب خاصة في التّهكم عليها ، أو التقليل من قدرها ، أو جعلها مثيرة للضحك ، أو غير ذلك من الأساليب التي يكون الهدف من ورائها محاولة التّخلص من بعض الخصال ، أو الخصائص السلبيّة". [1]

منهج البحث:

استند البحث على المنهج النّفسيّ في دراسته للقصص وتحليلها، لأنّه لمس تأثير الظّروف الجديدة في الكيان النّفسي للمسافر، أمّا كثرة الأوصاف التي استند عليها القاص ، فقد جعلت البحث يعتمد المنهج الوصفي، في بعض جوانبه.

الدّراسات السّابقة :

اعتمد البحث على دراسات سابقة أبرزها :

كتاب نظام الرحلة ودلالتها (السّندباد البحري عيّنة) لعليمة القادري، وقد ناقشت الكاتبة الحكاية السّردية في قصص السّندباد، وما تضمنته تلك القصص من شخصيات رامزة .

وكتاب بعنوان : أدب الرحلة عند محمد الخضر حسين (الرّحلة الجزائرية أنموذجاً) ، وهو رسالة ماجستير للطالبة (مريم بورقيه)، تناولت في خصائص الرّحلة عند الكاتب (محمد الخضر حسين) ، وعرضت الدّارسة من خلالها للرحلة الجزائرية بخصائصها الزّمنية، والمكانيّة والسّياسيّة والاجتماعيّة.

ومقالة بعنوان: الرّحلة بين الواقع والخيال في أدب أندريه جيد، بقلم نادية محمود عبد الله، مجلة، عالم الفكر ،1983، وقد تناولت فيه الباحثة الرّحالات التي قام بها (أندريه جيد) إلى أفريقيا ، تونس، الجزائر، وقد أكّد أندريه جيد، أنّ ما يشكل جاذبيه الرّحلة وفتنتها هو المكان، الذي يبدو جديداً بالنسبة لنا.

وكتاب بعنوان: الفكاهة في الأدب الأندلسي، لرياض قزيحة، وفيه حلّل الكاتب مظاهر السّخريّة، والنّقد الاجتماعي ، والنّوادر، التي سادت في الأندلس.

[1] عبد الحميد، شاكر، الفكاهة والضّحك رؤية نقدية، عالم المعرفة، الكويت، عدد: ٢٨٩، يناير، ٢٠٠٣، ص٥١

وكتاب فضل سالم عيسى، النّزعة الإنسانيّة في شعر الرابطة القلميّة، وقد تناول الكاتب فيه تحليل الجانب الإنساني لدى شعراء المهجر، ويتناول فيه جوانب الحبّ، والمبادئ السّامية، التي تتجاوز الحدود الدينيّة والعنصريّة.

فضلاً عن العديد من المقالات المتفرقة، الموجودة في بطون الكتب، والمجلات.

نبذة عن عبد السلام العجيلي:

ولد عبد السّلام العجيلي عام (١٩١٨)، تلقّى تعليمه الابتدائي في الرّقة، وحمل الشّهادة الابتدائيّة عام(١٩٣٩)، بعدها تلقى دراسته الإعداديّة في مدينة حلب، ولكن المرض أعاده إلى الرّقة، ليقضي أربع سنوات في قراءة التّاريخ والدّين والقصص الشّعبي، وداووين التّراث العربي، أتمّ دراسته الثّانوية في ثانويّة المأمون بحلب، قبل أن يلتحق بكلية الطّب في جامعة دمشق، ويعود إلى الرّقة طبيباً، انتخب نائباً عن مدينة الرّقة، عام (١٩٤٧)، وتولى عدداً من المناصب الوزاريّة، كتب القصّة والرواية والشّعر والمقالة.

من أعماله: قلوب على الأسلاك، مجهولة على الطّريق، وساعة الملازم، وباسمة بين الدّموع، التي نال عليها جوائز أدبية، وأحملهن التي كتبها عام ٢٠٠١.[1]

عرض البحث والمناقشة والتّحليل:

أولاً البعد الإنسانيّ:

إنّ البعد الإنساني واحد من الموضوعات المهمّة، التي أظهرها الكتاب في روايتهم للمغامرات والأحداث التي مرّوا بها، ولعلّ ذلك لم يكن على نحو مقصود، وإنّما فرضته المواقف والظّروف التي تعرّض لها المسافر، ووضعت جوهره الحقيقيّ على المحكّ. إنّ فقدان القيم وضياعها، من شأنه أن يُسلِم المسافر لغربة روحيّة أشدّ وطأة من الغربة المكانيّة.

في الواقع إنّ المسافر يعيش صراعًا داخليًّا عظيمًا، فمن جهة يرغب بالتّواصل الإنسانيّ مع الآخر، والتّعاطف معه ومساعدته، ولكنّه من جهة أخرى يدرك حجم الأخطار المحيطة به؛ لأنّه وحيد وغريب، وموجود في مكان مليء بالنّاس الغرباء المختلفين عنه في أفكارهم وطريقة حياتهم.

[1] https://kataranovels.com

وضمن هذا الإطار فإنّ إجراءات الانعزال والحيطة والحذر من شأنها أن ترفع في المسافر روح الأنانيّة، وتُضعف في المقابل مشاعر التّعاطف، وتقضي على أيّ اهتمام أصيل بالعالم الخارجيّ، واستبداله بارتباط شديد مع الذّات، وما يترتّب على ذلك من تشوّهات تصيب الحكم العقلانيّ والروحي في الوقت ذاته. [1]

ولعلّ الكاتب (عبد السّلام العجيلي) يظهر هذا الصّراع من خلال عرضه لأحد المواقف التي صادفته في أسفاره، ومن خلال هذا الموقف، يظهر حرصه الشّديد وخوفه من أن يتحوّل إلى فريسة سهلة للمحتالين والمخادعين، الأمر الذي دعاه إلى أن يرفع من وتيرة الحذر والتّرقب ، وأن يتحول ذلك لديه إلى أسلوب يدافع فيه عن نفسه، ضدّ الأخطار المحتملة، أو الأعداء الذين يتربّصون به شرًّا. فانفعال الحذر قد خلّف في أعماقه خوفاً عارماً وتوتراً، يقول معبّراً عن ذلك بوضوح :

"فإذا كنت غير قادر على خداع الناس، ومجانبة الصّراحة والصدق في معاملتهم، فإنّي لا أحبّ لنفسي أن أكون من البساطة بحيث يطمع فيّ النّاس ويجعلونني فريسة لخداعهم، وأنا كثير الدقّة في هذا شديد الحذر، وأنا في بلادي وبين أهلي، فكيف إذا كنت في رحلة في بلاد غريبة وبين قوم لا أعرفهم ولا يعرفونني". [2]

فالكاتب يتخوّف من الاستغلال، ممّا يجعل قواه العقليّة والإدراكيّة مستنفرة، وتعمل في كلّ الاتّجاهات، وكأنّها تريد أن تكشف شرًّا ما محدقًا، فإحساسه أنّه غريب وبين قوم غرباء تعكس شعورًا مبطّنًا بأنّه مجرّد من بعده الوجوديّ بين أهله، ذلك الدّرع الذي يمنحه شيئًا من الطمأنينة، الأمر الذي يدفعه إلى أن يرفع في أعماقه اللاشعوريّة من مستوى الانتباه والتركيز، بالطريقة التي يمكننا أن نقول فيها "إنّ الحياة اللاشعوريّة لدينا أضخم حجمًا وأفعل تأثيراً من حياتنا المشعور بها، والتي ندرك أطرافها ونلمّ بمسارها واتجاهاتها. ولسنا نبالغ إذا ما قلنا إنّ ما نعيه من واقعنا الجسمي والعقلي والوجداني أصغر بكثير جدًّا ممّا يغيب عنّا".[3]

وبناءً على هذا الكلام يعود إلى حيّز الشّعور الإحساس بأنّه (فريسة الخداع)، في الواقع إنّ كلمة فريسة بحدّ ذاتها تشكّل بعدًا لا شعوريًّا عميقًا يعيد إلى الذهن مجتمع الغابة؛ فالغابة تشكّل مجتمعًا يسيطر فيه القويّ على الضّعيف، ولا يوجد شيء يحمي الضّعيف من سلطة وبطش القويّ.

[1] فروم، إيريش، كينونة الإنسان، تر: محمّد حبيب، دار الحوار، اللاذقية، ط١، ٢٠١٣، ص١١٣

[2] العجيلي، عبد السّلام، دعوة إلى السّفر، منشورات: عويدات، ط١ ،١٩٦٣، ص٣٢

[3] أسعد، يوسف ميخائيل ، سيكلوجيا الخوف، دار: نهضة مصر، القاهرة، ص٩١

وبتعبير آخر فإنّ الغابة تخضع لمبدأ القوّة؛ فالأقوى هو المنتصر، والأضعف هو المغلوب" [1]، وليس أضعف من الفرد الوحيد التّارك وطنه، المفارق جماعته وأهله. فإلى أيّ حدّ استطاعت هذه الأفكار المتصارعة أن تشوّش رؤية الكاتب الإنسانيّة؟ وإلى أي درجة جعلته يتغاضى عن فطرته القائمة على حبّ الخير ومساعدة الآخر؟

يقول: "عجبت لهذا الشّاب الحسن الهندام، الذي يبيع ستّ بطاقات على قارعة الطريق، تكون ليرة سوريّة واحدة غير ذات قيمة إذا أعطيتها سائلًا فقيرًا، أمّا إذا اغتصبها محتال فإنّها أمر ذا بال" ..[2] لقد أعاق حذره –المبالغ فيه– من الآخر ضميره الداخليّ، فأضعف من قدرته على الاستجابة للقيم الرّوحيّة والإنسانيّة المغروسة في أعماق ذاته، وانصاع لثرثرة آلاف الأصوات المحذّرة والقادمة من أعماقه المضطربة تارةً، ومن الخارج ممثّلة بالرّجل العجوز المحذّر تارةً أخرى، فالفرد الذي هو عضو في جمع، يتعرّض تحت تأثير هذا الجمع لتغيرات عميقة تطال نشاطه النّفسي، فعاطفيته تتضخم، بينما يتقلّص نشاطه الفكري، وينكمش، وتضخم الأولى وتقلص الثاني يتمان باتجاه تماثل كل فرد في الجمع" [3] ولكنّ ذلك لم يدم طويلاً ، إذ سرعان ما فشلت تلك الأصوات التي حاولت لفترة قصيرة من الزّمن أن تحطّم هذا الشّعور الإنسانيّ ، وتدمّر ما يمنحه من راحة داخليّة. ولكنّ الأمر لم يطل طويلًا، إذ استطاع سريعاً أن يردم الهوّة التي بدأت تتشكّل بين ذاته الفطريّة وذاته الواعية. يقول:

" ثمّ التفتت إلى صاحبي أريد أن أعتذر إليه، إلّا أنّي رأيت يده ممدودة إليّ بالبطاقات الستّ، وسمعته يقول: ثمنها تسعون فرنكاً، إلّا أنّها تكفي لوقعة في مطعم وراء الدوم، فنسيت عندئذ نظرة التحذير من عيني جاري الكهل، وأخرجت من جيبي تسعين فرنكاً أفرغتها في يد الشاب" .[4]

لقد كان لعبارة: (تسعون فرنكاً تكفي لوجبة في مطعم وراء الدوم)، أن تعيد للقاصّ التّوازن الرّوحيّ من جديد؛ فالجوع من أقوى الغرائز وأكثرها مسّاً بإنسانيّة الإنسان، فالإنسان الجائع وغير القادر على تأمين قوت يومه، هو ضحيّة هذا المجتمع الكبير، المليء بهياكل بشريّة مجرّدة من

[1] أسعد، يوسف ميخائيل، سيكولوجيا الخوف، ص٣٨

[2] العجيلي، عبد السّلام ، دعوة إلى السّفر، ص٤٢

[3] فرويد، سيغموند، علم النّفس الجمعي وتحليل الأنا، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ص٣١

[4] العجيلي، عبد السّلام، دعوة إلى السّفر، ص٤٢

حسّ الإنسانيّة. لقد كان لليد الممدودة بتودّد لغة خفيّة معبّرة عن عمق الحاجة، أمّا كلام الشّاب المقتضب ، فقط كان له أبلغ الأثر في إطلاق العِنان للجانب الإنسانيّ المدفون في أعماق الكاتب؛ ذلك أنّ " التّعبيرات الدّقيقة هي شكل من أشكال لغة الجسد، وهي تعبير لا إراديّ عن العاطفة، والذي يحدث في أقلّ من ثانية واحدة. إنّها تكشف عن طريقة تفكير المفاوض الآخر، بحيث يمكنك استخدام ذلك في تعزيز موقفك، إذا فكّكت شفراتها على النّحو الصحيح"[1] ولعلّ ما فعله الكاتب لا يتعدّى ذلك، لقد جعله هذا الموقف يستحضر عشرات المواقف المشابهة، التي كان يظنّ فيها أنّه تغلّب على الآخر المخادع، ولكنّه اكتشف قصور تفكيره، وأنّه قد أضاع شيئًا ما لا يعرف كنهه بالتّحديد، لكنّه يدرك تمامًا أنّ هذا الشيء المفقود له أهميّة توازي أهميّة الحياة ذاتها، وأنّ فقدانه مجدّداً سيهزّ كيانه في الصميم، ويتركه خاويًا مشرّع الأبواب، والكاتب يدرك تمامًا أنّ الجانب الذي تعرّض للخسارة، ليس الجانب الواعي من النفس الإنسانيّة، بل الجانب الفطريّ الذي يستشعر لذّة العطاء وجماليّة الإحساس بالآخر.

ربّما كانت هذه هي الرؤية الأهمّ، لأنّها تشعر الإنسان بذاته، "الرؤية التي تعطيك شعورًا بمهمّتك الفريدة، ودورك في هذه الحياة، الرؤية التي تشعرك بالغاية من حياتك، وبالمعنى الكامن وراءها" [2]وتمنحك الإحساس بالتّفرّد والتميّز عن الآخرين.

ومن هنا لم يعد الآخر يمثّل الخداع أو الشّرّ والفساد، ولم تعد الأنا تمثّل الحنكة والفطنة والذكاء، لقد ساهمت تلك التّجربة في إلغاء ثنائيّة الأنا والغريب، فلم يعد الأشخاص الفقراء المتواجدون في محطّات السّفر مخادعين. لقد انحاز الكاتب إليهم إنسانيّاً، وما إحساس النّدم العارم الذي أصابه إلّا تعبير عن بداية التحوّل، الذي سيفتح الطريق أمامه واسعاً إلى الإنصات لفطرته الإنسانيّة، القائمة على حبّ الآخر ومساعدته. إنّ نظرة القاصّ الإنسانيّة، أو بتعبير أدقّ فلسفته الإنسانيّة، التي زادت المواقف المؤلمة– التي اصطدم بها في أسفاره– من قوّة حضورها، وعزّزت فيه تلك الطاقة الهائلة من التّعاطف والرّحمة والمساعدة، فبدت أمامه كلّ الدروب المغلقة نحو الآخر مفتوحة على مصراعيها.

---

[1] ويليامز، جريج، وإير، بات، أسرار لغة الجسد، مكتبة جرير، ط١، ٢٠٠٨، ص٢٨٢

[2] كوفي، ستيفن ر، العادة الثّامنة من الفعالية إلى العظمة، تر: ياسر العيتي، دار الفكر، دمشق، سورية، ٢٠٠٦، ص١١٤

فالإنسانيّة – كما ظهرت في قصّة الكاتب السّابقة– لا تكون إلّا إذا تجاوز الإنسان ذاته، ونفذ إلى جوهر الآخر، فأدرك حاجته ولبّاها .

ولعلّ الكاتب في قصّة **(ذات الشعر الأحمر)**[1]، قد أدرك مأزق الفتاة، وحاجتها المادية ، وما تعانيه من جوع ، فهي لا تملك ولو مبلغاً ضئيلاً من المال، تسد به رمقها ، فالفتاة الغريبة في بلد آخر تطوي الأيّام والليالي، دون أن يكون لديها القدرة على تناول وجبة طعام واحدة، وعليها أن تتحمّل الجوع يوماً أو يومين حتّى تتمكّن من أن تحصل على المال، لقد أدرك الكاتب بحسّه الإنسانيّ السّليم معاناة تلك الفتاة الوحيدة والغريبة في بلد غير بلدها، وفي الوقت ذاته أدرك عزّة نفسها، وترفّع روحها على الرّغم ممّا تعانيه من جوعٍ مضمنٍ، ومن إحساسٍ عارم بالغربة الروحيّة في مجتمع لا يأبه بالإنسان ولا يهتمّ به. " لقد أضحى الإنسان يعيش في عزلة، والعزلة هنا تأتي نتيجة التقارب والاقتراب، حيث شبكات معقّدة من المباني الضخمة ، والمنازل والشّوارع والفنادق والمطاعم، وأماكن البيع والشّراء، حيث الاقتراب متواصل ومستمرّ كرهاً أو طوعاً، وقد كان ما نجم عن ذلك كلّه في أغلب الأحوال عزلة ووحشة قاتلة" [2]. إنّ انفصال العالم المادّي عن العالم الروحيّ، قد أحدث انهيارات عميقة في عالم القيم، وما جرى مع الفتاة هو نتيجة من نتائج انهيار عالم القيم. يقول:

" قالت بسذاجة: ألم أقل لك إنّي لا أملك ثمن الطعام؟

– قلت: ولكنّني أدعوك إلى العشاء معي.

فلاح على شفتيها الكرزيتين شبه ابتسامة باهرة، وقالت بلهجة ساخرة:

– هل تملّكتك الشفقة عليّ؟

قلت: أرجو أن لا أكون جرحت شعورك في دعوتي، ولكن هناك ما يربطني بك ويبرّر دعوتي إيّاك إلى العشاء معي.".[3]

---

[1] العجيلي، عبد السّلام، حكايات من الرّحلات، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط١، ١٩٥٤، ص١٧

[2] عبد الحميد، شاكر، الغرابة (المفهوم وتجلياته في الأدب)،عالم المعرفة، الكويت، عدد: ٣٨٤، ٢٠١٢، ص١٤٤

[3] العجيلي، عبد السّلام، حكايات من الرّحلات ، ص١٩

إنّ وقوع الفتاة في صراع بين رغبتين قد دفع بها إلى مفترق طريقين: أحدهما تلبية حاجة الجسد إلى الطعام، والآخر نداء روحيّ يحثّها على صون كرامتها والارتفاع بها فوق الحاجة. في الواقع نجد أنفسنا أمام انكسارات خفيّة في أعماق الرّوح تهدّد الكيان الإنسانيّ، فاتّساع الهوّة (المادّيّة والروحيّة) بين الإنسان وأخيه الإنسان، قد تؤدّي إلى انهيارات على الصعد كافة، تبدأ من الفرد وتنتهي بالمجتمع. ومن هنا فالمجتمع البشريّ، ولا سيّما في المدن الأكثر تقدّماً، يتّجه نحو الكارثة، وليس بوسع أيّ نوع من الإصلاح تغيير هذا المسار، والفرصة الوحيدة لتجنّب هذه الكارثة هي العودة إلى الجوهر الإنسانيّ. ومن هذه النقطة فقد وجدت الفتاة في الدعوة إلى العشاء أكثر من مجرّد دعوة إلى إشباع مادّي، لقد تجاوزت دعوة الكاتب لها ذلك إلى ما هو أعمق؛ إنّه إشباع لجوع معنويّ وروحيّ، وحاجة للإحساس بطمأنينة الانتماء إلى مجتمع إنسانيّ متكافل.

إنّ مشاهد البؤس والحرمان دليل على موت الإنسانيّة بين النّاس، وموت الرّحمة في قلوبهم، "فالأخوّة هي الحبّ موجّهًا نحو الأخوّة في الإنسانيّة".[1] وستبقى هذه الكلمة فارغة بلا معنى، إذا لم يدرك الإنسان أبعادها القائمة على معرفة حاجة الآخر، والإحساس بها، فالإنسان لا يستطيع أن يحقّق تواصلًا حقيقيًّا مع إنسانيّته، إن هو تغاضى عن هذه الحاجة الأساسيّة غير المتوفّرة عند أخيه الإنسان.

ولعلّ ذلك يؤدّي إلى القول إنّ جوهر الإنسان لا يتغيّر بتغيّر الأمكنة والأزمنة، إنّ الروح الإنسانيّة الحقيقيّة خالدة لا تتبدّل.

ولعلّ الكاتب المسافر والقادم من بيئة شرقيّة مشبعة بقيم الإيثار والعدالة، قد جعلت روحه الإنسانيّة أكثر توثباً ومقدرةً على اكتشاف مواطن الحاجة ، والضعف لدى أخيه الإنسان في أيّ بقعة جغرافيّة صادفه فيها، سواء الفتاة ذات الشعر الأحمر، أم الرجل الذي يبيع البطاقات في القصّة السابقة. إنّ ذلك يدعونا إلى القول: " إنّ صوتًا واحدًا سيظلّ باقيًا، ذلك هو صوت الإنسان الذي لا يعتريه الفناء، وخلوده راجع إلى أنّ له روحاً قادرةً على التّعاطف والتّضحية وقوّة الاحتمال". [2]

---

[1] فروم، إيريش، كينونة الإنسان، ترجمة: محمّد حبيب، دار الحوار، اللاذقية، ط١، ٢٠١٣، ص١١٥

[2] هدارة، محمّد مصطفى، دراسات في الأدب الحديث، دار العلوم العربية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٠ ص٧١

والكاتب، إذ يعرض لهذه النماذج المنتشرة في أغلب دول العالم المتقدّمة، يبقى منحازاً إلى الإنسان أوّلًا؛ فمقياس التحضّر الحقيقيّ ليس ارتفاع المباني ولا التقدّم العلميّ، وإنّما صون الكرامة الإنسانيّة، وتحقيق العدالة الاجتماعيّة التي تقف إلى جانب الفقير المهمّش، وتعطيه أدنى متطلّبات الحياة، وفي مقدّمتها الطّعام، وتمنع عنه الجوع؛ لأنّ الجوع من أقسى الأمور التي يعانيها الإنسان ويترك في نفسه وروحه ندوبًا لا تندمل.

والأهمّ من ذلك كلّه يتجلّى في قدرة الإنسان على أن يفهم الإنسان الآخر، فتنمحي ثنائيّة (الأنا والغريب)، ويحلّ محلّها ثنائيّة (أنا وأنت)، وذلك لأنّ البشر جميعهم يتشاركون عناصر الوجود الإنسانيّ ذاته، وبذلك فإنّ التجارب التي عرضها الكاتب كان لها أبلغ الأثر في تقريب الإنسان من نفسه أوّلًا، ومن صنوه في الإنسانيّة ثانيًا..

في قصّة **(فتاة من زوريخ)** [1] يمكننا أن نتتبّع مراحل تطوّر العاطفة الذاتية للشخصيّة (عبد الكريم)، من مشاعر أنانية غايتها إشباع حاجة ذاتية نرجسية، إلى مشاعر إنسانيّة، تقوم عل حب الآخر واحترامه ومساعدته .

فمنذ البداية اتّفق الأصدقاء عند اجتماعهم على أن يسرد كلٌّ منهم حكاية مرّ بها، وعندما جاء دور (عبد الكريم)، صديق الكاتب، اختار أن يروي موقفًا صادفه خلال رحلته الأخيرة. ولعلّ التّفاصيل الدّقيقة التي توقّف السّارد عندها قد منحت حكايته تلك الواقعيّة والحرارة العاطفيّة والانفعاليّة، وجعلت السّامعين يعيشون التّجربة كما لو كانوا جزءاً منها. وربّما كان الدافع الأوّل وراء سرد(عبد الكريم) تلك الذكرى هو اللذّة التي يمنحها فعل الحكي، وتلك المتعة التي تجعل الذاكرة تنفتح وتفيض بما خزنته من لحظات فريدة.

إنّ " لدى الإنسان بصورة عامّة دافعاً كامناً ، يمكن أن نسمّيه مجازاً غريزة السّرد، فكلّ منّا يودّ أن يروي قصّة أو يحكي خبرة عاشها أو سمعها وانفعل بها؛ أي إنّ لدى الكاتب دافعاً أساساً لتفريغ شحنته الانفعاليّة والخبرة والمعرفة التي يكتسبها من موقف ما" [2]. ومن هذه النّقطة يغدو اختيار

[1] العجيلي، عبد السّلام، دعوة إلى السّفر، ص٤٨

[2] محبّك، أحمد زياد، متعة السّرد لماذا نقرأ الرّواية، مجلة المعرفة، وزارة الثّقافة، دمشق، عدد: ٤٤٨، كانون الأوّل، ٢٠٠٠، ص٢١٢

(عبد الكريم) لهذه الحادثة دون سواها اختيارًا له مبرّراته، فما أراد سرده ليس حادثة غريبة وإنّما واقعيّة، ولكنّها وعلى الرّغم من ذلك حادثة محبّبة إلى قلبه؛ لأنّها رافقته في رحلة بحثه عن ذاته، واكتشاف جوهرها ومعدنها الرّوحيّ الثمين، والذي يبدأ أولاً من العاطفة المتوثبة نحو المرأة بوصفها موضوعاً للعشق، والتي تغدو في بلاد الغربة أكثر تحرّراً، وأكثر قدرة على التّعبير عن ذاتها، لأنّها تتخلّص من المكبوتات الاجتماعيّة والنّفسيّة. ولذلك فإنّ محاولة إشباع هذه الرّغبة والتّعويض عن لحظات الحرمان يتعامل معها المغترب على أنّها مشاعر طبيعيّة، فالرجل المفتون بالجمال الأنثويّ يجد نفسه أمام كائن ملائكيّ خارق الجمال. ولقد أيقظ جمال الفتاة الملفت حنينه إلى الحياة، فأخذ يراقبها بجميع حواسه لعلّه يحصل منها على موعد. يقول:

" فتاة مشيقة القدّ سريعة ترتدي ثوباً أبيض جيّد الحبك، يلفّ قوامها الجميل فيبرز فتنتَه، فكان طبيعيًّا أن أمدّ نظري إليها، ثمّ أدير عنقي نحوها، حتّى إذا دخلت الصيدليّة، أو كانت رفعت رأسها فالتفت نظراتي بنظراتها. قلت لنفسي: اغتبط يا فتى، إنّ لنظراتك قوّة تشغل الحِسان عن غاياتها" [1].

إنّ إشباع الرّغبات المكبوتة، ومحاولة التّعبير عنها تجعل المرأة تظهر أمام القاصّ مخلوقًا متكاملًا، وهو مطمئنّ راضٍ عمّا تولّده فيه من إحساسات وانفعالات، وما تودعه في ذاته من عواطف وأعاصير. ومن هنا " فليس ثمّة صعوبة في تقبّل الرأي القائل بأنّ هذه الرغبات الغريزيّة اللاشعوريّة تُؤثر تأثيرًا عميقًا في الاتّجاهات النفسيّة للمرء وفي سلوكه طوال حياته" [2] ولهذا يتّجه السارد نحو المرأة برغبة متأصّلة تتبع من أعماقه، لا بوصفها الوسيلة الأساسيّة للتنفيس عن مشاعر محبوسة وحسب، بل بوصفها مرآة يستعيد من خلالها إحساسات المراهقة، وشعوره بأنّه لا يزال محلّ إعجاب الفتيات الجميلات، وما يجلبه ذلك من رضا داخليّ خفيّ.

ولكن كيف تبدّلت تلك العواطف المشبوبة نحو الحضور الأنثويّ؟

" لقد كانت طفلة هذه الفتاة الشّابة التي ألقاها عجزها بين ذراعيّ. وفجأة أحسست أن الشّعور الممضّ الذي أوحته إليّ حين عرفت عاهتها، شعوراً قريباً من التّقزز، أحست بأنّ هذا الشّعور قد

[1] عبد السّلام، دعوة إلى السّفر، ص٤٩

[2] فرويد، سيجموند، سيكولوجيا المرأة، تر: محمّد مختار صدقي، دار الكتب والوثائق القوميّة، ، مصر، ١٩٤٧، ص٥١

غاص من نفسي، وحلّ محله شعور فياض بالحنو والحدب يخالطه شيء من الخجل من ضعة نفسي ولا انسانيتي."[1]

وكيف تجاوزت نظرته تلك القشور المزيّفة نحو العمق الإنسانيّ؟

إنّ نظرة (عبد الكريم) إلى الفتاة الجميلة في البداية كانت محكومة باندفاع حسّيّ لا يتجاوز حدود الرّغبة في لفت نظر الفتيات، غير أنّ اكتشافه لعيبها الجسديّ، قد أحدث داخله صدمة دفعته في البداية إلى النّدم والشّعور بأنّه لم يُحسن الاختيار، وأنّ عليه أن يبحث عن صديقة أخرى أو أن يظلّ صامتًا. إلّا أنّ صدق الفتاة وعفويّتها وشفافيّتها قلبت مشاعره، فأيقظت في داخله صفاءً روحيّاً ونقاءً داخليّاً، فبدأ يرى الحبّ بمنظور مختلف تماماً؛ ولعلّ ما ساعده على ذلك وفق مجريات القصّة هو تمرّد ذاته المثاليّة، هذا التّمرد الذي نشأ بمجمله من " التعنيف الذي يتعرّض له الأنا من جانب المثال، في حال تماهيه مع موضوع مستهجن ومنبوذ"[2]. وبذلك لم يعد الحبّ في نظره خاضعاً لاعتبارات مادّيّة أو شكليّة مرفوضة من أناه الأعلى، بل تحوّل إلى قيمة إنسانيّة سامية، تتجاوز المظهر إلى الجوهر.

" فجميع طرائق الدفاع تهدف إلى تحقيق هدف واحد يتيم: مؤازرة الأنا في صراعه ضد الحياة الغريزية، ويكون اللجوء إلى هذه الطّرائق الدّفاعيّة بدافع من ثلاثة أنواع رئيسة من المخاوف التي تعتري الأنا: خوف الغرائز، الخوف الواقعي، وخوف الضمير"[3] فالخوف من تأنيب الضمير هو ما ساعد على انتصار معاني الحب الحقيقي في أعماق الذات، ذلك أنّ "النضج الواعي هو القدرة على الانفتاح على الآخر، ومواجهة الذّات بوضوح وصدق، وتحريرها من كلّ خوف وتردّد. والنّضج الإنساني يشمل النضج العقليّ والعاطفيّ والاجتماعيّ والأدبيّ، فالحبّ يساعدنا على التعايش مع مشاكلنا ومجابهة الواقع، ومحبّة الآخر محبّة مجانيّة، فلا حبّ خارج حدود التضحية والبذل والعطاء، فالحبّ يبحث عن خير الآخر، والخير المطلق للإنسانيّة" [4]

---

[1] العجيلي، عبد السّلام، دعوة إلى السّفر، ص٥٤

[2] فرويد، سيغموند، علم النفس الجمعي وتحليل الانا، ص٩٥

[3] ، فرويد، آنا، الأنا وأواليات الدّفاع، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت ، ص ٦٥.

[4] المقدسي، ليلى، الحبّ قيمة رابعة، مجلة المعرفة، وزارة الثّقافة، دمشق، عدد ٥٠٠، آيار: ٢٠٠٥، ص٢٣١

و بناء على ذلك يمكننا أن نقول:

إنّ الكاتب من خلال عرضه لهذه اللوحات الإنسانيّة، إنّما يشارك بقيّة الكتّاب في حلمهم بتحقيق عالم يسوده العدل، فعلى الرّغم من قتامة الموقف المعاصر ومصاعبه، فما زالت هناك إمكانيّة للحلم اليوتوبيّ؛ فالعالم المعاصر أبعد ما يكون عن العقلانيّة والجدّة، ولكنّ الحلم في جوهره ما يزال ممكنًا ومطلوبًا، حلم العدالة والسّعادة لكافّة البشر، حلم لا يجوع فيه الإنسان، ولا يُقهر ولا يُضطهد عقله أو جسده أو خياله. [1]

فهذا الحلم اليوتوبي ليس صعب التّحقيق، مادام هنالك بشر يؤمنون بالعدالة، ويقامون القسوة والظّلم، ويؤكدون أنّ إنسانيّة الإنسان هي الجوهر الثّمين الذي يجمع البشر على اختلاف انتماءاتهم .

ثانيا : ً البعد الفكاهي:

في الواقع إنّ الإنسان بطبعه ميّال إلى التعبير عن نفسه وأفكاره وخواطره، وأحيانًا تكون نظرته إلى الوجود نظرة تشاؤميّة، ولكن ذلك ليس دائمًا؛ إنّه يميل أيضاً إلى إشاعة جوّ المرح والتفاؤل والضحك. وقد قال هنري برغسون في كتابه الضحك " إنّ الإنسان حيوان يعرف كيف يضحك"[2] ، فالضّحك ليس فقط حالة انفعاليّة، وإنّما هو ظاهرة إنسانيّة يستخدمها الإنسان ليعبّر عن ذاته وعن رأيه بمن يحيط به من أشخاص أو أحداث ووقائع.

إنّ الدّهشة وشعور الاستغراب من أكثر الأمور، التي تثري حسّ الدّعابة وتنشّطه، وبناءً على ذلك فليس غريبًا أن تصبح الدعابة سمة أسلوبيّة تسم أدب الرحلات.

فالكاتب المسافر الذي يريد أن يخبر الآخرين بتفاصيل رحلاته، لا بدّ له أن يجذب انتباههم، ولذلك يغدو استخدام المفارقات المثيرة للفكاهة، إضافةً إلى استخدام المبالغة أو التضخيم، طريقةً ناجعة في تحقيق هذا التفاعل.

ومن هذه الزاوية فأسلوب الدعابة غالبًا ما يقوم بإغناء السّرد، مستدعياً في معظم الأحيان تلك الظرافة المسبّبة للمرح، وذلك أنّ هذا الأسلوب " له قدرة خاصّة على استثارة الضحك، أو

[1] يُنظر: الخطيب، محمّد كامل، الرّواية واليوتوبيا، دار المدى، بيروت، لبنان، ١٩٩٥، ص٢١٥

[2] برغسون، هنري، الضّحك، تر: علب معلا، المؤسسة الحامعية للدراسات والنّشر،ص١٠

الابتسام لدى الآخرين، من خلال بعض الملاحظات أو التّعليقات التي تكشف رشاقة في التّعبير وبراعة وسرعة في إدراك المتناقضات، والجمع بينها في تعبيرات تثير الابتسام والضحك" [1]. ربّما ينشط هذا الجانب في اللحظات التي يجتمع فيها الإنسان مع أقرانه؛ إنّ الإحساس بالألفة والطّمأنينة والسّعادة بلقاء الأصدقاء في بلاد الغربة، وما ينشره ذلك من راحة نفسيّة عميقة، تشحن الذّات بطاقة إيجابيّة تسهم في بثّ روح التّفاعل والمرح.

وبناءً على ذلك يمكننا أن نقرأ قصّة المرافقة والموافقة من مجموعة (محطات في الحياة):

« التقيتُ بصديقي الظريف م. في لندن، منذ عامين علم يومها بأنّي قدمت إلى العاصمة البريطانيّة في زيارة قصيرة، وكان هو في أحد أسفاره إليها، فجاء يزورني في فندقي» [2]

يبدأ الكاتب سرده للقاء بصديقه في لندن قبل عامين، ويستهلّ هذا السّرد بطريقة تظهر أنّ الحدث كان سريعاً من حيث الزمن، لكنّه ظلّ حاضرًا في ذاكرته بما خلقه من مشاعر جميلة. ولعلّ وصف الكاتب لصديقه (بالظريف) كان تمهيدًا لنقل القارئ إلى أجواء مليئة بالبهجة والضحك؛ فالصديق الظّريف هو شخص قادر على أن ينشر البهجة بظله الخفيف، وقدرته على خلق مواقف مضحكة. ولعلّ السبب الرئيسيّ الذي أثار الضحك وأشاع جوّاً من المرح هو المفارقة؛ فمن جهة يهنّئ الصديق الكاتب لصحبة زوجته له قائلًا:

«واسمحي لي بأن أهنّئ صديقي زوجك السّعيد بمرافقتك له في كلّ رحلاته، يرضى الله عن أمّ البنين زوجتي، كلّما طلبتُ منها أن تصحبني في سفر اعتذرت بأنّها لا تستطيع أن تترك الأولاد وحدهم، والحقيقة أنّها لا تطيق أن تتنفّس سوى غير هواء دمشق، ولا أن ترى وجهًا غير وجوه خالاتها وبنات الأخوال والأعمام،..... من أين لي حظّ هذا السيّد المحترم زوجك ؟ [3].«

ومن جهة أخرى يوجّه كلامه إلى الكاتب راثياً لحاله، يقول:

[1] شاكر، عبد الحميد، الفكاهة والضحك (رؤية جديدة)، عالم المعرفة، الكويت، عدد: ٢٨٩، ص٦٧

[2] العجيلي، عبد السّلام، محطات في الحياة، وزارة الثّقافة، دمشق، ١٩٩٥، ص٢١

[3] العجيلي، عبد السّلام، محطات في الحياة، وزارة الثقافة، دمشق، سورية، ١٩٩٥، ص ٢١

" تريد الحقيقة إنّي أرسي لك ، ما رأيتك مرّة إلّا متأبّطًا حرمك المصون في أسفارك في الشرق والغرب، أما تفكّر مرّة في أن تسافر وحدك لتستمتع بحريّتك في هذا الجانب الجميل من العالم؟ ضحكتُ لسرعة ما غيّر صاحبي كلامه" [1]

إنّ أسلوب الصديق العفويّ وقدرته على أن يقول كلامًا يرضي جميع الأطراف؛ كان السّبب الأوّل في إثارة الضّحك، فمن جهة أولى أرضى الزوجة وأشعرها بأنّها الملكة المتوّجة على عرش زوجها، ولكنّه وفي الطّرف النّقيض أظهر حزنه لمصير الزوج المقيّد وغير الحرّ، أوغير القادر على الاستمتاع بوقته جيّدًا؛ لأنّ زوجته ترافقه وتقيّده وتراقب تصرّفاته. ولعلّ ما أشاع جوّ الفكاهة والمرح في كلام الصديق ليس سرعة تغيير مواقفه، ولكن في الطّريقة التي أراد من خلالها أن يضحك صديقه.

في الواقع " إنّ لدى الكاتب نيّة في إضحاك القارئ، حتّى إن لم يُعلن عن ذلك صراحة؛ إنّها طريقة في فتنة القارئ وإغرائه، وليس من السهولة أن تحظى بابتسامة القارئ" [2]. ومن هذه الزّاوية فإنّ ما أراد الصديقان روايته من أحاديث متبادلة وأحداث جرت معهما، كانت بدافع نشر المرح والدعابة، وليس التشهير أو الذمّ. ومن هنا يمكننا القول:" إنّ ما يتيح للناس أن ينسجموا بعضهم مع بعض ليس هو العقل، وإنّما هو في المقام الأوّل الرغبة في إسعاد الآخرين، أو الإحساس بالانتماء للمجتمع، أو الرغبة في استحسان الناس" [3] وضمن هذا الإطار يصوّر الكاتب لصديقه مشهد صراع الثيران بطريقة تحمل ما تحمله من الإثارة والتشويق، ليختتم المشهد بأسلوب لا يخلو من الخفّة الباعثة للضحك والابتهاج:

«وفي نهاية حفلتنا هذه ارتفع صوت المكبّر يقول للمشاهدين: إنّه بقي عجل واحد لم ينزل إلى الحلبة، فهل من الزّوّار من يرغب في منازلة هذا العجل؟ حدّثتُ نفسي بأن أفعلها أنا، ووضعت آلة التصوير التي كانت في يدي جانباً، وتهيّأت للنزول من المدرّج، وهنا تطلّعت رفيقتي إليّ مستفهمة وقالت: إلى أين؟

---

[1] العجيلي، عبد السّلام، المصدر السّابق، ص٢١.

[2] كيليطو، موضوع أسئلة وحوارات، أمينة عاشور، دار توبقال، الرّباط، المغرب العربي،٢٠١٧، ص١١١

[3] وايت، نيكولاس، السّعادة موجز تاريخي، تر: سعيد توفيق، عالم المعرفة، الكويت، ع: ٤٠٥، اكتوبر، ٢٠١٣، ص١٣٩.

قلت: سأنازل الثّور..... وعندما بلغت هذه النقطة من حديثي أطلقها صاحبي ضحكة" .[1]

ولعلّ ما أثار ضحك الرفيق بهذه الطريقة التّناقض الكبير، أو الهوّة العظيمة بين قوّة الثور، وضعف الكاتب، وعدم خبرته بقواعد هذه اللعبة التي تحفظ سلامته، وتضمن له عدم الإصابة بأذى، مما جعل من إمكانيّة النّجاة أو الفوز صعبة، وبذلك يكون الكاتب قد وضع نفسه في موقف لا تحمد عقباه.

لقد انسجم مع مباراة صراع الثيران انسجاماً عظيماً، فاستيقظت في أعماقه غريزة المغامرة، وطمح أن يحقّق بطولة فردية أمام الجمهور. إن تضخيم الأنا في أعماق الذات قد بلغت حدًا عظيماً، لدرجة أنّه لم يعد قادرًا على أن يقدّر إمكانياته بالطريقة الواقعية، وربّما يعود ذلك في أغلبه إلى أنّ الإنسان الذي جرّب متعة الرحلة، والتحرّر من القيود الاجتماعيّة يميل إلى تجربة ما هو جديد، وأن يتحدى ذاته ويطلق لها عنان الحرية.

ولعلّ أسلوب المدرب المثير وطريقة دعوته لمنازلة العجل الصّغير، الذي بقي وحيدًا في الميدان يغدو أسلوباً تحفيزيّاً، نجح في إثارة حماس الكاتب، فقرّر أن يتحدّى ذاته ويثبت قوته. إنّ التّماهي التّام مع الحدث الذي يراه أمامه قد رفع من درجة الحماسة، ليأتي صوت الزوجة محذراً ومنبّهاً لخطورة الموقف. إنّ الزوجة هنا ما هي إلّا صوت العقل الذي يحاول أن يكبح جماح الإنسان ، ويحميه من التهور.

في الواقع، إنّ الرّحلة عند عبد السّلام العجيلي، لا تقدّم عرضاً جامداً يجرّ القارئ إلى أماكن نائية، وما تحويه من مظاهر حضارية وعمران فحسب، بل إنّ كتاباته تأتي كرحلة جميلة، تنقلنا عبر لغة تنبض بالخيال حينًا، وبروح الفكاهة والمرح حيناً آخر.

وبناءً على هذا الكلام، فالكاتب لا يغفل عن توظيف أسلوب المفارقة نظراً لما يبعثه هذا الأسلوب من أجواء تتسم بالخفة والبهجة، وتطلق الضّحك من أعماق القلب، كما حدث فيما رواه في مجموعته التي تحمل (عنوان ادفع بالتي هي أحسن)، يقول ناقلًا عن صديق له مقارنة بين سلوكين...لطفلين قرارا أن يلقيا التحية على المسافرين في القطار. يقول في قصّة (بين التحيتين) :

[1] العجيلي، عبد السّلام، محطات في الحياة، ص٢٤

"لمحت والقطار يتهاوى في سيره على الجبل القريب من مسارنا، فتاة صغيرة ألصقت ظهرها بالصخور، كأنّها حذرة من أن تجرفها العربات بمرورها في قربها، كانت فتاة في نحو السّابعة من العمر، موردة الخدين، ضاحكة الثّغر، تحمل في يدها بضع زهرات. وحين أصبحت عربتنا في محاذاة الصخرة التي أسندت الصبية ظهرها إليها، حدثت المفاجأة التي لم تستغرق غير ثانية من الزمن، الثانية التي كانت فيها الفتاة في مستوانا، وكنّا في مستواها. فقد رفعت آنذاك يدها وألقت إلينا وردة حمراء صغيرة استقرت في جواري، فوق المقعد الذي كنت أجلس عليه. [1]

فالفتاة الملتصقة بالصّخر تعكس إحساسًا داخليًا بالقلق، أما الوردة التي ألقتها فتعكس سلوكاً اجتماعياً ودّياً ورغبة بالانفتاح على الآخر، والتّواصل الإنساني الجميل معه.

ولعلّ هذا ما يعكس منظومة القيم التربوية التي تشجّع الطفل على مشاركة الآخر وفق أسلوب إنساني يعكس حَسّ الرقة والتهذيب، وما يتركه ذلك من أثر جميل في نفس الآخر.

فسلوك الطفلة حمل استقراراً انفعالياً داخلياً استمدّته الصغيرة من بيئة مشبعة بالاستقرار والأمن، الذي انعكس على تصرفاتها.

يتابع الكاتب سرده لما جرى نقلاً عن صاحبه، ولكن ليس في سويسرا، وإنّما في بلده، يقول:

" بلغت عربتنا في قطارنا هذا أكثر الأماكن قربًا من الصخور المجاورة لسكته، كان هناك صبيّ صغير في السّابعة من عمره تقريبًا، ملتصقاً بظهره بالجبل، حيث أصبح في مستوانا مثلما أصبحنا في مستواه. حدثت المفاجأة، قذف إلينا من فمه ببصقة لزجة كبيرة أصابت كتلتها الرّئيسيّة وجه أحد ركاب العربات، وأخذ كلّ منا نحن الباقين نصيبه من رذاذها". [2]

ممّا لا شكّ فيه أنّ سلوك الصبيّ المذكور، إنّما هو سلوك عدواني يعكس غضبًا داخليًا، يحاول التنفيس عن مشاعره المكبوتة بهذا السّلوك الاستفزازي، الذي يحمل في طياته إهانة للآخر وإزعاجاً له، واعتداء عليه، ولعلّ ذلك في جوهره هو تعبير عن القيم التربوية التي تلقّاها الطّفل في بيئته التي تكرّس مثل هذه القيم. ولعلّ السبب الخفي وراء هذه التّصرفات هي الضّغوط المختلفة (الاقتصادية والاجتماعية....) التي يعيشها سكان هذه المنطقة، والتي انعكست على تصرفات أطفالهم، إضافةً إلى القيم الاجتماعية التي تكرّس حِسًّا عدائيًّا عند الأطفال الذكور وتشجّعهم على ذلك.

---

[1] العجيلي، عبد السّلام، ادفع بالتي هي أحسن، دار رياض الرّيس، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٧، ص٢٨

[2] العجيلي، عبد السّلام، ادفع بالتي هي أحسن، ص ٢٩

وبالمقابل، فإنّ اللطف والتعامل الودي مع الآخر يُعدّ ضعفًا – من وجهة نظرهم– لا ينبغي الاتصاف به، بينما هو في واقع الأمر نوع من اختزام الآخر.

" فالغضب والحنق والحقد، هي مشاعر إنسانية محضة، تشكل التّرجمة النّفسيّة للعدوانيّة الشّائعة عند مختلف الكائنات الحيّة، والتي تتحرك بإزاء التّهديدات المختلفة" حجازي، مصطفى، الإنسان المهدور(دراسة تحليليّة نفسيّة اجتماعيّة)، المركز الثّقافي العربي، لبنان، ٢٠٠٦، ص ٢٩١ . فالنقص في الإشباع العاطفي والتّعامل الخشن مع الطفل في مثل هذه السّن المبكرة، وانعدام الاهتمام به، جميع هذه الظّروف تجتمع مع بعضها البعض، لتؤدي به إلى التّصرف بهذه الطّريقة العدائية الهجومية، التي تحاول أن تلغي الآخر، أو أن تسحقه معنويًّا من خلال التّقليل من قيمته وإهانته، وذلك بدل التعامل الودي معه، وتقديم الاحترام اللائق الذي ينبغي للأطفال أن يعبّروا عنه تجاه الغرباء، أو كبار السن.

لقد ترك الكاتب للقارئ أو للمتلقي اكتشاف المفارقة بين الموقفين، وعلى الرّغم من أنّ أطراف المفارقة ليست مجهولة أو خفيّة، إلّا أنّ الكاتب يسعى في مفارقته السّاخرة تلك إلى أن يعبّر عن وجهة نظره تجاه القيم الحضاريّة ، والسّلوكيّة المختلفة باختلاف المكان.

وعلى الرّغم من أنّ الأصدقاء حاولوا تعليل هذا السّلوك لاختلاف الجنس بين ذكر وأنثى، إلا أنّ السّارد أبدى تأثره تجاه ما حدث، بالطّريقة التي نستطيع أن نقول فيها :

"إنّ المفارقة السّاخرة هي استراتيجية الإحباط واللامبالاة وخيبة الأمل. ولكنّها، وفي الوقت ذاته، تنطوي على جانب إيجابي، فقد نظر إليها على أنّها سلاح هجومي فعال، وهذا السّلاح هو الضحك، ولكنّه ليس الضّحك الذي يتولد عن الكوميديا، بل الضّحك الذي يتولد عن التوتر الحاد والضغط ، الذي لا بدّ أن ينفجر". [1]

ولعلّ هذا ما أشار إليه الراوي بسرده لهذه المفارقة والتعليق عليها بقوله:

«لكم أن تضحكوا، فليس أدعى إلى الضحك من المفارقة بين الزهرة في القطار السويسري ، والبصقة في قطارنا البلد. نطق هذا بمرارة، ولم تغب عنا. [2]"

---

[1] القاسم، سيزا، المفارقة في القصّ العربي المعاصر، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، مجلد٢، عدد٢، ١٩٨٨، ص١١٤

[2] العجيلي، عبد السّلام، ادفع بالتي هي أحسن، ص٢٩.

فالمفارقة السّاخرة التي استخدمها الكاتب كأداة لإظهار المواقف السّلبيّة، وجعلها موضع تأمّل وتفكير، قد حقّقت غايتين مزدوجتين، فمن جهة أولى: كانت موضع إمتاع، فالدّعابة وسيلة لتخفيف التّوتر عن القارئ، وفي الوقت ذاته، فالمفارقة تحولت في قصص الكاتب إلى أداة نقدية بنّاءة، أظهرت السّلبيات، التي تعاني منها المجتمعات، ونبّهت إليها بأسلوب لطيف، بالطريقة التي تجعل السّلوك الإنساني أكثر رقيّاً وحضارة.

النتائج:

-إنّ الحسّ الإنساني العميق الذي اتّسم به أدب الرحلة عند عبد السلام العجيلي، لم يكن على نحو مقصود، وإنّما فرضته طبيعة المواقف التي صادفها الكاتب في أسفاره، وأخرجت الحسّ الإنسانيّ الدّفين في أعماقه، والذي استطاع بفضله أن يتغلّب على مشاعر الخوف والحذر، وأخذ الحيطة وتوقع الشّرّ من الآخر ، لصالح المشاعر الإنسانية الصّافية.

– في القصص التي عرضها الكاتب استطاع أن يحوّل المواقف التي بدت بسيطة وعابرة إلى حسّ إنساني عميق أظهر من خلاله تعاطفه مع الإنسان بغض النّظر عن الانتماء أو الدين أو اللون، وكان هدفه في ذلك الدفاع عن الكرامة الإنسانية، وحقّها في الحياة الكريمة.

إنّ الرّحلة عند عبد السّلام العجيلي، ليست تقريراً جافاً يحيل القارئ إلى أمكنة بعيدة، وما تحويه من مظاهر عمرانية وحضارية فقط، بل هي رحلة جميله تنقلنا إلى عالم ينبض بالبهجة والمرح ، كما في قصة (المرافقة والموافقة) التي استخدم فيها الكاتب أسلوب الفكاهة، نظراً لما يبعثه هذا الأسلوب من أجواء تتسم بالمرح والسّرور، وتطلق الضحكات الصادرة من الأعماق بلا تعقيدات أو حواجز .

-استخدم الكاتب أسلوب المفارقة السّاخرة، كوسيلة لإبراز التّباين بين القيم والسّلوكيات المختلفة باختلاف البلدان ، ممّا جعل القارئ يتأمل في هذا التباين ، وينحاز للقيم الإيجابية ويدافع عنها.

المراجع والمصادر:

١- المصادر:

ابن منظور ، لسان العرب، تحقيق نخبة من الأساتذة، دار المعارف، القاهرة، ج٣، د.ط

ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السّلام هارون، دار الفكر ، بيروت.

وهبي، مجدي ، المهندس، وكامل، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت،ط٢ ، ١٩٧٤.

العجيلي، عبد السّلام:

- حكايات من الرّحلات، دار المغارف، مصر، القاهرة، ط١، ١٩٥٤.
- دعوة إلى السّفر، دار عويدات، بيروت، ط١، ١٩٦٣.
- محطات في الحياة، وزارة الثّقافة، دمشق، سورية، ١٩٩٥.
- ادفع بالتي هي أحسن، دار رياض الرّيس، بيروت، لبنان، ١٩٩٧.:

٢- المراجع:

أسعد ، يوسف ميخائيل، سيكلوجيا الخوف، دار نهضة مصر، القاهرة ، د.ت.

حجازي، مصطفى، الإنسان المهدور (دراسة تحليليّة نفسيّة اجتماعيّة)، المركز الثّقافي العربي، لبنان، ٢٠٠٦

الخطيب ، محمد كامل، الرواية واليوتوبيا، دار المدى، بيروت، لبنان ، ١٩٩٥.

القاسم، سيزا ، المفارقة في القص العربي المعاصر، مجله فصول الهيئة المصرية العامة للكتاب، المجلد٢، عدد٢، ١٩٨٨.

عبد الحميد، شاكر، الفكاهة والضحك رؤية نقدية، عالم المعرفة، الكويت، عدد: ٢٨٩، يناير، ٢٠٠٣.

عبد الحميد، شاكر، الغرابة (المفهوم وتجلياته في الأدب)، عالم المعرفة، الكويت، ٣٨٤، ٢٠١٢.

فروم، إيريش، كينونة الإنسان، تر: محمد حبيب، دار الحوار، اللاذقية مصر، ١٩٤٧.

فرويد، آنا، الأنا وأواليات الدّفاع، ترجمة: جورح طرابيشي، دار الطليعة بيروت.
فرويد، سيغموند:
– علم النّفس الجمعي، وتحليل الأنا، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٧٩.
–سيكولوجيا المرأة، ترجمة : أحمد مختار صدقي،دار الوثائق القوميّة، مصر، ١٩٤٧.

كوفي، ستيفن، العادة الثامنة من الفعالية الى العظمة، ترجمة: ياسر العيتي، دار الفكر، دمشق، سورية، ٢٠٠٦.
كيليطو، موضوع أسئلة وحوارات، أمينة عاشور، دار توبقال، الرّباط، المغرب العربي،٢٠١٧
محبك، أحمد زياد، متعة السرد ، لماذا نقرأ الرواية، وزاره الثقافة، دمشق ، عدد٤٤٨، كانون الأول، ٢٠٠٠،
هدارة، محمد مصطفى ، دراسات في الأدب الحديث، دار العلوم العربية، بيروت، لبنان ، ط١، ١٩٩٠.
.
ويليامز، جريج، وإير، بات ، أسرار لغة الجسد، مكتبه جرير، ط١، ٢٠٠٨.
المقدسي، ليلى، الحب قيمة رابعة، مجله المعرفة، وزارة الثقافة ، دمشق، عدد٥٠٠، آيار، ٢٠٠٥

٣– المواقع الالكترونية:

https://karanovels.com